الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة غارداية

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

# الصورة الشعرية لابن خفـــاجة في وصف طبيعة الأندلــس "الطبيعة الصامتة نموذجا"

مذكرة نهاية الدراسة لنيل من شهادة الليسانس في اللغة العربية و آدابها

من إعداد الطالبين:

مكاوي محمد

شارف بلخير

تحت إشراف الأستاذ:

سمير عبد المالك

الموسم الجامعي: 1434 هـ – 2013م

# كلمة شكر

"العلم خزائن مفتاحها السؤال، ألا فسألوا، فإنه يؤجر فيه أربع: العالم والمتعلم والسامع والمحب لهم "

**حديث شريف**

لولا فضل الله وتوفيقه، لما كنا أنجزنا هذا العمل فله الحمد والشكر في الأولى والآخرة .

كما أنه " لايعرف أقدار الرجال إلا الرجال " و"الدال على الخير كفاعله" لذلك نجد أنفسنا عاجزين عن التعبير في تقديم جزيل الشكر والتقدير للأستاذ المشرف "سمير عبد المالك" على اهتمامه، وإخلاصه في العمل وروحه العلمية العالية.

كما نشكر كل من أعاننا على إنجاز هذا العمل سواء من قريب أو من بعيد، خاصة أصدقائي الذين رافقوني طيلة حياتي الجامعية.

كما نتمنى النجاح لكل طلبة السنة الرابعة كلاسيكي تخصص أدب عربي.

**بلخير ومحمد**

# الإهداء

أحلى ما في الدنيا أن ينال العبد رضا الله عز وجل فنحمده حمدا يدوم بدوام الدهر، ونصلي على رسوله وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم النشر

أهدي هذا العمل المتواضع إلى أحلى كلمة يراودها لساني...إلى التي حملتني وهنا على وهن...إلى التي سهرت الليالي من أجلي...الصدر الحنون

أمي الغالية، أطال الله في عمرها وأدام صحتها.

إلى تاج رأسي... إلى القلب الرؤوف...إلى من تحمل مشاق الحياة...

إلى من تعب من أجل تعليمي،

إلى سندي في الحياة ومن وفر لي كل مؤهلات النجاح، أبي العزيز أطال الله عمره.

إلى إخوتي "عمار وزوجته حورية ،نعيمة،فايزة،صليحة،عائشة،إيمان،والبرعم الصغير فاروق وبنات أخواتي الكتاكيت رانيا،سيرين،رودينة " وإلى جدتي وأعمامي علي،مسعود،بلقاسم وأولادهم وكل الاصدقاء الدين عرفتهم ممن قاسموني مقاعد الدراسة

عبدو،معمر،عقبة،الصغير،جلول،قادا بيتزا،عبدالقادر العربي،أنور،الشيخ الزاوي،العلاوي،والغالية شوشو،وليد،وأعز رفيق بيخو وإلى الأخ الذي لم تنجبه لي أمي أحمد دخينيسة،

الى كل من ساعدني من قريب أو بعيد في انجاز هدا العمل المتواضع

وإلى كل من وسعتهم ذاكرتي ولم تسعهم مذكرتي

" إليـــــــــــــــهم، أهدي ثمرة جهدي وعملي "

**محمد مكاوي**

# إهـــــــــــداء

أهدي ثمرة جهدي المتواضع إلى :

من غمرتني بحبها وعطفها، إلى من أنارت دربي

إلى من سهرت وتعبت من أجل راحتي، أمي العزيزة.

إلى سندي ودعمي في الحياة إلى الذي ربّى وعلّم وأعطى كثيراً

إلى الذي أرادني أن أكون دائما في أعلى المراتب، أبي العزيز.

إلى إخواني وأخواتي وخاصة أخي "علي" وإلى كل الأهل والأقارب كل باسمه

وإلـــــى خطيبتي، ورفقاء الدرب وزملائي وبالأخص نواري، علاوي، نجيب

عبد القادر، الطيب، مصطفى، بن اعمر، عمر، أحمد، مكي

يعقوب، ناصر، وإلى كل من ساهم وساعدني في هذه المذكرة.

"إلى كل من وسعتهم ذاكرتي و لم تسعهم مذكرتي" وإلى كل من يعرفني باسمي.

**بلخير.ش.**

الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله وسيد المرسلين وعلى أله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.أما بعد :

قد وهب الله الأندلس طبيعة ساحرة تبعث الانبهار والدهشة والإعجاب لدى المقيمين والعابرين فالإنسان كان يلجأ إلى الطبيعة ليفرغ فيها أحزانه وينسى فيها ألامه ويستمد منها إلهامه ولنذكر على سبيل المثال ماقاله المراكشي في وصف بلاد الأندلس : "فهي مطلع شموع العلوم وأقمارها ومركز الفضائل وقطب صدارها وأعدل الأقاليم هواء وأضفاها وأعذبها ماء وأعطرها نبقا و أنداها ضلالا وأطيبها بكرا مستعذبة وآصالا".

وهذا ماجعل وصف الطبيعة من أبرز الأغراض الشعرية في الأندلس حيث تهيأت الأسباب والدواعي فهامت القلوب وشغفت النفوس وأبدع الأندلسيون في وصف الطبيعة وجبالها الخضراء وسهولها الجميلة وسمائها ونجومها ورياضها وحقولها وأنهارها وقصورها ومساجدها وغيرها...

ولعل ابن خفاجة من الشعراء الأندلسيين الذين شغفوا بجمال الأندلس وطبيعتها الخلابة والتغني بمحاسنها حتى أطلق عليه لقب شاعر الطبيعة أو الجنان، ذلك أن أغلب إنتاجه الشعري كان في وصف الطبيعة التي مال إليها واستقى منها طيلة حياته.

ومن هنا جاءت دراستنا لتبين وبالدليل على أحقية ابن خفاجة للقب شاعر الجنان أو شاعر الطبيعة الأول في الأندلس معتمدين في ذلك على بعض المصادر والمراجع كأن أهمها حياة وأثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة لحمدان حجاجي، البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر للدكتور سعد شلبي، ديوان ابن خفاجة، عبد الرحمان جبير ابن خفاجة الأندلسي.... وغيرها.

كما اقتضت هده الدراسة -المقدمة- توزيعها إلى مدخل ومبحثين جاء في المدخل الصورة الشعرية لابن خفاجة وتناولنا في المبحث الأول شعر ابن خفاجة إذ يندرج تحته ثلاثة مطلب: الأول ترجمة الشاعر والثاني آثاره والثالث خصائص شعره (الأغراض الشعرية عند ابن خفاجة)، أما المبحث الثاني وصف الطبيعة الأندلسية "الطبيعة الصامتة" ويندرج تحته مطلبين: الأول الروضيات والأشجار والزهور والثمار والجبال والرياح والأنهار، والثاني دراسة قصيدة "الجبل" دراسة وصفية وفي الأخير خلصنا إلى خصائص شعر الطبيعة لدى ابن خفاجة في الأندلس كل هذا في الخاتمة.

وتجدر بنا الإشارة إلى بعض الصعوبات التي واجهتنا في ثنايا هذا البحث وإن كانت ليست بالمستعصية نذكر منها ندرة المصادر التي لم نستطع الحصول عليها.

تعد الصورة الشعرية ركيزة أساسية من ركائز العمل الأدبي، وهي تمثل جوهرة الشعر، وأهم وسائط الشعر في نقل تجربته والتعبير عن وقائعه، ويعتبر مفهوم الصورة الشعرية من مفاهيم النقدية المعقدة، شديدة الإضطراب وذلك لتشعب دلالاته الفنية. لتشير إلى الصورة التي تولدها اللغة في الذهنimagerie وفي مجال الأدب تستخدم الصورة الفنية. بحيث تشير الكلمات أو العبارات أما تجارب خبرها المتلقي من قبل أو إنطباعات حسية فحسب.(1)

وتجمع الدراسات النقدية الحديثة، على اختلاف آرائها إن الصورة بالمفهوم الفني لها نعني أية هيئة تثيرها الكلمات الشعرية بالذهن، شريطة أن تكون هذه الهيئة معبرة وموحية في آن واحد.(2)

وتلعب الصورة الشعرية دورا هاما في بناء الشعر، إذ أن الصورة تبقى أداته الأولى والأساسية تفوق عصرا عن عصر وتيارا عن تيار، وشاعر عن شاعر، وتظهر أصالة الخالق على قيمة وترمز على العبقرية والشخصية، بل وتحمل خصوصياته وفرديته لأنها الأداة الوحيدة التي ينقل بها تجربته، ولا يمكن أن يستعيرها من سواه.(3)

كما أن هناك من النقاد من يرى أن الصورة الشعرية ليست في مفهومها إلا هذا الإدراك الأسطوري التي تنعقد فيه الصلة بين الإنسان والطبيعة وأن يجعل من ذات الطبيعة الخارجية.(4)

وتلعب الصفات الحسية دورا هاما في الصورة الشعرية وأدل على ذلك من أن ريتشاردز في الكتابة مبادئ النقد الأدبي قد علق كثيرا من الأهمية على الصفات الحسية للصورة "أن ما يعطي صورة فعاليتها ليست هويتها كصورة، بقدر ميزتها كحادثة ذهنية ترتبط نوعيا كإحساس".(5)

من العلاقات اللغوية يقدم معنى تقديما حسيا وثالثها دراسة الوظيفة التي تؤديها الصورة في العمل الأدبي وأهميتها للمبدع والمتلقي على السواء.(6)

(1)- علي غريب محمد الشاوي. **الصورة الشعرية عند الأعمى التظليلي مشتبه**.الأدب.1003.ط1.ص17.

(2)- عبد القادر أحمد الرباعي، **الصورة الفنية عند أبي تمام**.كلية الأدب.جامعة القاهرة.1976م.ص3.

(3)- المرجع السابق.ص17.

(4)- مصطفى ناصف، **الصورة الأدبية**، طبعة مكتبة مصر القاهرة.1958م.ط1 .ص7.

(5)- المرجع السابق.ص19.

(6)- جابر عصفور.**الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**.دار التنوير والنشر.1984م.ط2. ص2.

ويعالج الثاني طبيعة الصورة باعتبارها تقديما حسيا للمعنى، ولقد لاحظ النقاد علاقة الصورة بمدركات الحس، وقدرتها المتميزة على مخاطبة إحساسات المتلقي، وإثارة الصورة الفنية في مخيلته كما أنها شجعت الميل إلى حصر الصورة الفنية في النمط البصري وحده، فكان أفضل الوصف ما قلب السمع بصرا، بالإضافة إلى أن المقارنة القديمة بين الشعر والرسم كانت تؤكد ذلك الميل وتدعمه.[1]

والمجاز على أنهما مرتبطان بالتصنيف الشكلي للبلاغة ينصح باستعمال الصورة كمصطلح يشملهما كليهما وإن كان يجدر علينا أن نستبعد من أذهاننا ما يفيد بأن الصورة البصرية فقط أو بشكل غالب، فالصورة قد تكون بصرية وقد تكون سمعية سيكولوجية.[2]

(1)- **المرجع السابق**.ص11.

(2)- علي غريب محمد الشاوي، **الصورة الشعرية عند الأعمى التضليلي**، ص28.

**المطلب الأول: ترجمة الشاعر:**

إذا ذكرت الأندلس فإنك تذكر طبيعتها وبالتالي نذكر شاعر من شعراء الطبيعة الكبار وهو ابن خفاجة الملقب بالجنان.

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي فتح بن خفاجة.[1] بن عبد الله الهواري الأندلسي.[2] ترجم له معاصرة ابن خافان فذكر أنه ولد سنة 450هـ الموافق لـ:1م وقد ولد بجزيرة شقر وهي تقع على مسافة 11ميلا جنوب غرب بلنسية ولقد أسهبنا في وصف تلك الجزيرة الرائعة لأنها مسقط رأس شاعرنا الكبير ومهد طفولته الرفيق ومرتع صباه وكان لها أثر كبير في شعره ولقربها مدينتي مرسية وشاطبة حيث كان أدباء وفقهاء ذوي علم وكفاءة مما أتاح لشاعرنا أن يدرس الشيوخ آنذاك كابن أبي تليد.[3]

والظاهرة من شعره أنه عاش معيشة الفنان خليع الغدار طليق الأسار فلم يسْمُ إلى معالي الأمور ولم يتولى عملا من الأعمال العامة أمثاله، ولم يتعرض لسماحة ملوك الطوائف مع تهافُتهم الشديد على أمثاله وإنما أخلى ذرعه من مشاعر الحياة ووهب نفسه للجمال والفكرة للخيال وحسنة اللذة وكله للطبيعة فهو ينتقل في رُباها وخمائلها ويجول بين مروجها وجداولها، فيقف عند كل رائعة ويصف كل واقفة ثم يعود إلى كأس روبة فيحتسيها أو صورة رائعة فاتنة فيجتليها، أو ثمرة محرمة فيحتبيها ويتنفس به العمر على تلك الحال.

عاش في أيام ملوك الطوائف، ودولة المرابطين، عاش على اللهو في شبابه وانصرف عنه منتكسا مع تقدمه في العمر، تعاطي الشعر والنثر فبرع فيهما.

كان ابن خفاجة يُعد أديب الأندلس وشاعرها بدليل ما نعته في كتابه "نفح الطيب" وكان رقيق الشعر أنيق الألفاظ، ولقد تفرّد ابن خفاجة بالوصف والتصرف فيه، ولاسيما وصف الأنهار، والأزهار، والبساتين والرياض والرياحين.[4]

(1)- ابن خفاجة .**الديوان**.دار بيروت.ط1.ص5.

(2)- ف.حسن محمد نور الدين.**ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس**.دار الكتابة العلمية.بيروت.لبنان.ط1.1990م ص29.

(3)- عبد الحكيم الوائلي، **موسوعة شعراء الأندلس**، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2001م.ط1.ص115.

(4)- حمدان حجاجي.**محاضرات في الشعر الأندلسي**.طبع دفاتر أندلسية في عصر ملوك الطوائف.2001م.ص667.

فكان أجود الناس فيها حتى لقبه أهل الأندلس بالجنان أي البساتين ولقبه الشقندي الصنوبري الأندلس وهو القائل:

**يا أهل الأندلس لله دركم ماء وظل وانهار وأشجـار**
**ماجنة الخلد إلا في دياركم لو خيرت.....هذا كنت أخـتار**
**لا تخشوا بعد ذا تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النـار**

وكان أستاذا ونابغة في عصره في وصف الطبيعة في مظاهرها الرائعة وجمالاتها الفاتنة، فهو يصورها ويشخصها، صادق الحب لها، متقد العاطفة نحوها ريان بالإعجاب بها، ويقول وهو يصف نهرا:

**لله نهر سالي في بطحاء أشهى ورودا من لمى الحسنـاء**
**متعطفا مثل السوار كأنه والزهر يكنفه بحر سمـاء**
**قد رق حتى ضن قوسا مفرغا من فضة في برده خضراء**
**وغدت تحف به الغصون كأنها هـدب تحف بمقلة ورائهـا**

فالطبيعة عند ابن خفاجة هي كل شيء، فقد شفق بها ومزج وجهه بروحها وبادلها الشعور والإحساس، وكان يتحدث إلى شخص في حياة وحركة.

ولكن لو صدقنا التقدير نقضنا على أنفسنا القول بأنه شاعر الطبيعة وقلنا أنه كان يرى الطبيعة في إطار الغنى وضمن إحساسه بالتغيير، وحسنه الرقيق بالصراع بينه وبين الزمن وصراعه مع الهلع أو هاجس الموت، أو الخوف.

كان يتقن وصف الطبيعة والأشياء من حوله وصفا يبلُغ حدّ الإعجاز ويتقن في استحضار الصور والألفاظ والتراكيب من مخيلته حتى يكاد يضمن أنه بلغ في وصفه حدّ تصوير الأشياء بأبهى صورة وأجمل تراكيب، والغريب أن ابن خفاجة نفسه كان يدرك شدة إلحاحه على الطبيعة واستحلاله لها في شعره، وكان هو نفسه حائرا في تفسير هذه النزعة المتمثلة، فهو يقول عن نفسه، مستعملا ضمير الغائب.[1]

(1)- **المرجع السابق**.ص667-668.

إكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وبرية مثل وزنه طائر ماهو إلا أنه كان جازما لهذه المصفوفات الطبيعية فطر عليها وجبله وإما لأن الجزيرة كانت داره ومنشئه وقراره حتى غلب عليه حب ذلك الأمر.

فصار قوله عن كلف لا تكلف مع إقناع قام مقام الاتساع، فأعناه عن تبدل، فهو يرجح أن يكون حب الطبيعة لديه أمرا في تركيبه وجبليته فإن لم يكن كذلك فهو من آثار البيئة الطبيعية الجميلة التي نشأ فيها متناسيا حالته النفسية، ولا يردي ذكرها وتأثرها على إبداعه واتقانه الوصف والجمال، ونستعرض هنا بعض قصائده في وصف الجبل وتلك التي يقول فيها :

**وارعن طـــماح الذؤابة بـــــادح يطاول أعنان السماء بغـــارب**

**يسد مهب الريح عن كل وجهت ويزحم ليلا شهبه بالمناكـــب**

**وقورا على ظهر الفـــــلاة كـــأنه يطول الليالي مطرق في العواقب**

وهذه صورة الجبل الذي يمثل الطموح والارتفاع والاعتراض، والقار الصامت الذي يشبه الأطراف المتأمل ثم يأخذه الصامت في سرد ما يرد ما مر به من مشاهد فهو شخص آخر إزاء الشاعر.

يبدأ عهد ملوك الطوائف في الواقع بعد تضعضع الخلافة الأموية وانصراف عدد من الأسر القوية إلى استغلال الحكم في الأقاليم والمقاطعات الأندلسية المختلفة، هكذا توزعت طوائف عديدة، بربرية وعربية، أرض الأندلس وعواصمها حيث أقامت دويلات تتحارب فيما بينها وتتنافس في العمران وفي رعاية الثقافة والفن وإحياء مجالس الطرب والغناء. وفي أيام المرابطين خضعت معظم ديار العرب لسلطان المرابطين وأشرافها قوات دولة قومية، وأقاموا لها عاصمة جديدة هي مراكش التي تبناها يوسف بن تاشفين 1039م، وامتد نفوذه حتى شمال إفريقيا الشمالية من الأطلس حتى الجزائر، وفي تلك الأثناء كان عهد الطوائف في الأندلس يعاني الضعف والتمزق. وكان ابن خفاجة من أسرة على جانب اليسار، والاهتمام بالعلم والأدب فتهيأت له ظروف مواتية سمحت له بأن يتوفر على الطلب ومخالطة الشيوخ واتباع الهوية الأدبية ومعلوماتنا على فتونه وشبابه الأول قليلة نادرة، وإن كنا نستطيع أن نتبين ملامحها من خلال شعره، وما لذلك أخبار متفرقة عن كهولته وشيخوخته، وقد غابت عن ابن خفاجة نظم الشعر والعناية بالأدب.[1]

(1)- **المرجع السابق.** ص668.

كما كانت له اهتمامات أخرى في اللغة والرواية والحديث، وترجم له بن سعيد في المغرب تحت عنوان "العلماء"، وإدراجه صديقه ابن خافان واعتبره من نبهاء الأدباء وفحول الشعراء.

ومن التلاميذ الذين روَوْا عنه وحملوا ديوان شعره واحتصر بصحبته جماعة منهم : أبو عامر بن نيف (ذكره الشاعر في الديوان بلقب الوزير).

وكان ابن خفاجة إنسانا متميزا وذو شخصية فريدة من طباعه وسلوكه وملامح شخصيته ونظرته إلى الحياة، وهو على الرغم من ماله وجاهه ومن حبه للحياة واستمتاعه للطبيعة عاش سروره، لم يتزوج قط وهو أدرك صدرا من ملوك الطوائف وكانوا يتنافسون في تقريب الشعراء ومصافحة الأدباء ولكنه في الجملة أعرض عنهم ولم يجعل شعره في خدمتهم، وقال إلى بسام في ترجمته للشاعر في الذخيرة لا أعلمه تعرض لملوك الطوائف بوقتها على أنه نشأ في أيامه ونظرا لثقافتهم في الأدب وازدحامهم. [1]

وها نحن نبلغ السنوات الأخيرة من حياة شاعرنا الذي عمّر طويلا كما نعلم، ففي الديوان نجد فعلا مقطعة شعرية قالها الشاعر وقد بلغ إحدى وثمانين من عمره – أي قبل سنتين من وفاته- يجب أبا العرب عبد الوهاب التجيبي وقد سأله عن حاله 131:

**أي إنس أو غداء أو سنه لابن إحدى وثمانين سنـــة**

**قلص الشيب بها ذيل امرئ طالما جر صــباه رسنـــة**

**تارة تخـــطو به سيـــئة تسخن العين وأخرى حسنة**

وقد احتفظ لنا التاريخ بقصيدة من هذا الطراز فتن بها (صاحب الروض المعطار) -132 وفيها يتشوق الشاعر إلى معاهدة بجزيرة شقر فيقول:

**بين شقر وملتقى نهريها حيث ألقت بنا الأماني عصاها.** [2]

ولا شك أن ابن خفاجة وجد في ذكرياته راحة وبفضلها نسي حاضره وغفل عن ما ينغص عيشه، ولكنه عندما يفيق ويدرك خطورة حاله نجده من ألذ المتمردين على الحياة الدنيوية فرفضها في

(1)- محمد رضوان الدايا، **الذخائر، المكتب الإسلامي**.1972م، ط1، ص.272

2)- حمدان حجاجي.**حياة وأثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ,الجزائر ط. 2ص127-128.

نغمات رومنطيقية قبل أوانها، ويودع ابن خفاجة في قطعة شعرية 134 هي فيما يبدو تصوير لحالة نفسية خاصة بالشيخوخة، بأسلوب معقد يأسه النهائي أمام هذه الحياة :

**فيا ليت أني ماخلقت لمطعم ولم أدرِ ما اليسر هناك ولا العسر.**

ويظهر لنا من خلال الديوان أن ابن خفاجة لم يهتم كثيرا بالآخرة، ولم يتسلّ عن هذه الحياة بما سيجده في دار الخلد من نعيم، فلما أحس بقرب أجله نظم قع شعرية 135 أعدها لتُكتب على قبره، واستعد ليفارق هذه الدنيا غير نادم عليها:

**خليلي هل من وقفة لتـــــأ لم على جدثي أو نظرة لترحم**

**خليلي هل بعد الردى من ثنية وهل بعد بطن الأرض دار مخيم**

في تلك الجزيرة،جزيرة شقر، توفي ابن خفاجة، ودفن بها، كما أوصى به، سنة 553 هـ/ 1138 م وقد بلغ من العمر ثلاثا وثمانين سنة. [1]

(1)- **المرجع السابق**، ص129-130.

**المطلب الثاني: أثاره:**

من أهم ما وصل إلينا من تراث الأندلس الشعري من ديوان ابن خفاجة، فإن هذه الحسنة تفوق كثيرا من الحسنات في سمحته التي هي بين أيدينا من ضجة الشاعر نفسه، كما جمعه وهو ابن 64 سنة بناء على رغبة أصدقائه ومحبي فنه، وفي الديوان ثلاث نواحٍ مقدمة الشاعر، وقد بسط فيها نظرته إلى الشعر، وتجربته الشعرية، ومجموع شعره، وقطع من نثره وقدم للقصائد بمقدمات – تطول وتقصر، في مناسبتها وأغراضها.

وقد يعقب عليها بأمور لغوية أو نقدية أو بجوانب أخرى، ولم يترتب الشاعر ديوانه على القوافي أو الأغراض أو التسلسل الزمني بل ترك الأمر عفويا.[1]

وله ديوان طُبع في مصر فيه من أنواع الشعر في مختلف الأغراض المدح والعتاب والرثاء والشكوى والوصف وما إلى ذالك، ولكن الوصف هو الغالب على أدب شاعرنا.

كما يقول في قصيدة وصف الجبل :

**وارعن طـــماح الذؤابة بـــــادح يطاول أعنان الســماء بغــارب**
**يسد مهب الريـح عن كـل وجهـة ويزحم ليلا شهـــبه بالمناكـــب**
**وقورا على ظهر الفـــــلاة كــأنه يطول الليالي مطرق في العواقب**
**يلوث عنه الغيم سود عـــــائم لها من وميض البرق حمر دوائب**
**أضحت إليه وهو أخرس صامت فحدثني ليـل السرى بالعجــائب**

وقال في قصيدته متفرج :

**مجر ذيل غمامة قد ضمقـــــت وشيء الربيع به يد الأنواء**
**ألقيت أرحلنا هنـــــاك بقيـــة مطروبة من سرحة غــناء**
**وقسمت طرف العين بين ربـــاوة مخضرة وقرارة زرقـــــــاء**
**وشربتها عذراء تحســـب أنهـــا معصورة من وجنتي عذراء**
**حمراء صافية تطيب بنفســـــها وغنائها وخلائق الندمــاء**
**خدها كما طلعت عليك عرارة مفترة عن لؤلؤ الأنـــــداء.** [2]

(1)- حنا الفاخوري، **تاريخ الأدب العربي**، المكتبة البوليسية، بيروت، لبنان.1970م.ط1.ص74.

(2)- ابن خفاجة. **الديوان** ، ص218.

وقال أيضا قصيدة نار :

**لاعب تلك الريح ذلك اللهب فعاد عين الجد ذلك اللعب**

**وبات في مسرى الصبى يتبـعه فهو لها مضطرم مضطرب.** (1)

وقال أيضا في ذكريات سفينة :

**تهاداني لذكركم ارتيـــــــاح فبت وكل جانحة جنـــاح**

**أإخواني ولا إخوان صـــــدق أصافي بعـدكم إلا الصفـاح**

**لحسن الصبر دونكم حـــران وللعبرات بعدكم جمـــــاح**

**فديتكم بنفسي من كـــــرام يهز بهم معاطفه السمـاح.** (2)

(1)- ابن خفاجة الأندلسي.**عبد الرحمان جبير**.منشورات دار أفاق الجديدة.بيروت.د/ط,ص129.

(2)- **المرجع نفسه**، ص137.

**المطلب الثالث :خصائص شعر ابن خفاجة (الأغراض الشعرية):**

**1.الأغراض المدحية:**

كانت نيّة ابن خفاجة في قصائده المدحية أن يكون شاعرا كلاسيكيا بأتم معنى الكلمة ليرضي حماته فيبلغ غايته، فتناول فعلا كل أغراض المدحية الموجودة عند من سبقه من الشعراء مثل كرامة الأصل والفضيلة الشخصية والشجاعة والكرم والرأفة والحلم.

وقد حاول ابن خفاجة أن يأتي فيها بما هو جديد طريف غير أنه لم يتجاوز العبارات الأسلوب، لقد ظل ذلك الفنان المغرم بالتعابير المنسجمة العذبة، وبالاستعارات الرائقة المقتبسة من الطبيعة في غالب الأحيان. ولو ألقينا نظرة على عامة هذه الأغراض المدحية التي ذكرها شاعرنا، للاحظنا أنه توسع في تحليل البعض منها دون الآخر، ولا سيما فيما يتعلق بالخصال الذاتية والأخلاقية التي تتميز بها الشخصية الممدوحة.

وقد يخطر بالبال أن ابن خفاجة لم يبق جامدً أمام أبهة وحسن هيئة ممدوحيه الذين هم في رأيه أهل للمدح والثناء، وهذا مايساعدنا ربما على فهم مانشعر به من إخلاص خلال قصائد شاعرنا وقتما يخاطب أمثال أبي إسحاق أو ابن رحيم مثلا. وينبغي أن نميز في دراسة هذه الأغراض بين الخصال الذاتية والخصال الأخلاقية، فقد يبدو أن ابن خفاجة شديد التأثر بما يمتاز به ممدوحه من جمال في ذاته وانسجام حتى أدى به هذا إلى أن يتساءل يوما فقال :

**مليك تبسم ثغـر المنى بمرآه وامتد خـــطو الأمـــــــل**

**يشـد اللثام على صفحة ترى البـدر منها بمرقي قـى زحـل**

**فلم أدر والحسن صنؤ له أبدأ أ بالمـــدح أم بالـــــغزل**

ولهذا تغنى شاعرنا باللباقة واللطافة، بالبشاشة والانشراح، فهي خصال تجعل صاحبها حسن العِشرة، خفيف الروح عذب الكلام، واهتمام ابن خفاجة بهذه الناحية من شخصية ممدوحه أدى به إلى اقتباس استعارات من طبيعة يانعة مبتسمة وإلى استعمال صفات نعثر عليها عادة في الشعر الغزلي. [1]

(1)- حمدان حجاجي .**حياة وأثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة**.شركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص133-134.

## 2.الرثـــــــاء:

لقد رأينا أن ابن خفاجة في قصائده الشعرية لم يأت بأمر جديد جدير بالذكر وهذا ما نلاحظه كذلك في مرثياته، فقد اكتفى شاعرنا أن يكون مقلّدًا لمن سبقه من الشعراء فأتى بالمعاني المتداولة بينهم، واذا ألقينا نظرة خاطفة على إنتاجه في الرثاء تبين لنا أنه تعرض لثلاث أغراض هامة: الألم وظواهره ثم مدْح المتوفى وأخيراً ما نسميه ((بفلسفة الحياة)) حيث تمتزج الأغراض الزهدية بالحكم دون ترتيب.

الأول من هذه الأغراض جاء مصوراً بتفصيل ويستغرق القسم الأوفر من هذا الإنتاج، ففي كل مرثية يبدو لنا الشاعر في هيئة حزينة، مكبّا على وجهه، يتألم لفقدان أصدقائه الواحد بعد الأخر، فيبوح بما يشعر به من وجع لاذع، وبما يعانيه من بلاء لا يطاق، وبفقدان صبره لبقائه وحيدا في عالم لا رأفة فيه ولا رحمة، ثم يستولي على قلبه اليأس فيرى أن الحياة غدارة غراره. أمِنَ المُمْكن بعد هذا أن يغتر الإنسان فيؤمن بالخيال؟ يسوغ له أن يتكلم عن السعادة في الحياة لا محال فانية؟

ويجدر بنا أن نلاحظ أن مرثيات ابن خفاجة لم تكن كلّها قصائد نُظمت لا رضاء ملك أو أمير أو جبرا لخاطرهما. لقد أنشد الشاعر الكثير منها ارتجالاً عندما يفاجئ بوفاة صديق كان يلازمه ويمر له مودة خالصة، فيبكي عليه بكاء حارا، معبرا بشعره عما يحس به حقا. والدليل على ذلك سذاجته في تعبيره، لقد عرض علينا بلا تكلّف كل ما أحس به في ضميره.

والملاحظة الثانية لا تقل أهمية، وهي أن مابلغنا من إنتاج ابن خفاجة في الرثاء قليل بالنسبة لما جاء به في ميادين الأخرى فإنه لم يرث كل من لازمه وخالطه، رغم أنه شهد مراراً أمراء ووزراء كان من المتوقع أن يودعهم راثيا. ولقد يُقال بأن شاعرنا نظّم هذه المرثيات، إلا أنها ضاعت فلم تبلغنا، وهو قول من العسير أن نثبته لندرة معلوماتنا في الوقت الحالي. وماهو أقرب إلى الحقيقة فيما يبدو لنا هو أن ابن خفاجة لم ينتمي إلى طبقة أولائك الشعراء.[1]

لم يقف ابن خفاجة عند هذا الحد بل استمر في شكواه يودّ أن يدرك الجميع أن ألمه شديد موجع جداً وأنه يتحمل مالا يطاق فعمد مدللاً على ذلك إلى ذكر حوادث خارقة للعادة حتى يقنع سامعه. ومن بين هذه الحوادث يشير ابن خفاجة إلى أجماد الذي لم يتجاهل ما طرأ عليه، فيرق لي رؤية حالته، ولا يستطيع لدموعه أمساكا، يقول في قصيدة:

(1)- **المرجع السابق**.ص153-154.

**في مثله من طارق الإرزاء جاد الجماد بعبرة حمـــــراء**

**من كل قانئة تسيل كأنها شهب تصوب من فروج سماء**

ويذكر في محل آخر الحساد، ويرى أن هؤلاء قد تأثروا تأثراً ما، لما شاهدوه من همه ولما انطوى عليه من أم فيقول:

**لوت الضلوع الأصادق لوعة ولربما رقت به الحساد.** [1]

## 3.الأغراض الزهدية :

لم نجد في ديوان ابن خفاجة شعرا كثيرا قاله في الزهد، وذلك يرجع دون شك إلى عدم ميله إلى هذا النوع من الشعر ويؤكد قولنا ما نعرفه عن طبعه وحبه الحياة وملاهيها، فلا غرابة إذن إذا لاحظنا أن إنتاجه الزهدي كله تقليدي ليس فيه تجديد يستلفت النظر، وكان من العسير عليه في الحقيقة أن يزيد على أبي العتاهية الذي لم يترك لغيره مايقال في هذا الميدان.

ويتجلى لنا خلال المقطوعات الشعرية التي نظمها بلا شك في السنوات الأخير من حياته، الأبيات الشعرية التي ترد من المرثيات، أن ابن خفاجة لم يخالف من سبقه من الشعراء فسار سيرتهم أن أحداً منهم لم يفكر في الإقلاع عن الشهوات والملاذ الدنيوية، إلا بعد شعوره بانقضاء زمان الشباب وعبء السنين، ودنو الأجل. فلم يبق لابن خفاجة إلا أن يتوب ويستعد للقاء ربه، مفضلا دار النعيم والبقاء على دار الشقاء والفناء. [2]

ويستمر ابن خفاجة في تصوير هذه الأغراض المعروفة في الشعر الزهدي فيقارن بين العاجلة والآجلة ويحث سامعه على اختيار هذه دون الأولى بلا تردد. إلا أن الشاعر لا يطيل الكلام عن الجحيم وما سيذوقه من عذاب أصحاب الشمال المذنبون، فلا يذكر في ديوانه الجنة والنار بيد أنه يتكلم على يوم القيامة، يوم الحساب بين يدي الخالق سبحانه وتعالى، فثمّ يكون الجزاء وثمّ يكون العقاب، فيشير حينئذ إلى النعيم من جهة وإلى الجحيم من جهة أخرى.

(1)- **المرجع السابق**.ص160.

(2)- **المرجع نفسه**.ص166.

فعلى الإنسان أن يستعد للقاء ربه من الآن قبل أن يفاجئه أجله فيصبح من النادمين في يوم لاتنفعه الندامة فيقول :

**فهل أنت في دار الفناء ممهد محلك في دار البقاء ومنزلك**

ويقول أيضا ناهيا منذرا :

**فلا تجر كفك في مهـــرق بما لا يسر هناك الكتاب**

**فإنك يوما محـــــازى به وإن يدا كتبته ترابـــــا**

**ولا خطة غير إحدى اثنتين إما نعيم وإما عـــــذاب.** (1)

إنه لمِن حُسنِ الحظ أن بلغنا ديوان ابن خفاجة كاملا في الصورة التي رضي بها الشاعر إذ هو الذي اهتم بجمع إنتاجه في آخر حياته وأحسن طبعة للدنيا هي طبعة مصطفى غازي بدار المعارف سنة 1960م. وجاء مضمون ديوانه مرآة الحياة بمرحلتيها، ففي المرحلة الأولى المطابقة لعصر ملوك الطوائف كان إنتاجه لشاعر فنان حُر مستقل تعرض فيه إلى ما يرضيه ويستهويه غير مبال بالغير كان للطبيعة بمختلف ألوانها الحض الأوفر مما يدل على حبه لهذه الطبيعة الخلابة المحيطة به فهي الجنة بعينها مما أدى إلى مخاطبة من يقضي بها بشاطرة رأيه فيقول متغنيا بجمال الأندلس :

**يا أهل أندلس لله دركـــم ماء وانهار وأشجار وأزهار**

**ما جنة الخامد إلا في دياركم وهذه كنت لو خيرت أختار**

**لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار**

يقف ابن خفاجة أمام الطبيعة وقفة المتبهج محدقاً فيها إلى ما يمتد إليه طرفه مالئًا بصره بمناظرها المتوالية المتلونة المنسجمة كأنها لوحات أبدعها رسام ماهر ويزيد إعجابه بها في فصل الربيع حيث تبدو له هادئة أمينة ترتاح له نفسه في اطمئنان شامل.(2)

فرؤية الطبيعة في مجاملها أدت به إلى ذكر ما يسمى "بالروضيات" حيث يصف لنا ماتراه عيناه المحلقة على تلك المناظر الأرضية برمتها مكتفيا بإشارت خاطفة تفتح المجال لخيال السامع حتى يتصور المشهد بمكوناته فيشير تارة إلى النسيم وتارة إلى الظل والظليل وتارة إلى الندى وتارة إلى تغريد

(1)- **المرجع السابق**.ص171.

(2)- حمدان حجاجي.**محاضرة في الشعر الأندلسي في عصر الطوائف**، زرياب،باريس1993م.ص88.

الطيور وإلى كل ما يزيد المشهر رونقا وعذوبة وحيوية بحيث يصبح شبيها بالفتاة الحسناء ناقلا ابن خفاجة من الوصف إلى الغزل فيقول:

**تمر كما ساغ اللمى سلسال وصبا بلبل ذيلها مكســـال**
**ومهب نفحة روضة مطلولة في جاهتيها للنسيم مجـــال**
**غازلته والأُقحوانة مبســـم والآس صدغ والبنفسج خال.** (2)

وله أيضا:

**فالروض مهتز المعاطف نعمة نشوان تعطفه الصبا فينبل.**

ويطب لابن خفاجة أن يحاس المناظر المنبسطة أمامه بمختلف الأزهار من بنفسج وأقحوان ومن ياسمين وسوسان ومن ورد الرأس ونيلو فرقهي بمثابة مختلفة الألوان لدى الرسام ألوان يستخدمها بمهارة فتأتي في أماكنها متكاملة منسجمة زاهية تقع من نفس الشعر موقع الرضى فيجلي لنا مشهدا رائعا منشرعا وفضلا عن الألوان، فالأزهار تغمر الرياض بروائحها الطبيعية، ولاسيما بعدما أن تساقط عليها الندى صباحا أو مساءا فينعشها وبصفار أوراقها مما يزيدها بهاء وقد تأتّى ابن خفاجة أن يشير إلى هذا كله في أبيات طرافتها أكيدة فيقول:

**في روضة جنح الدجى ظل بهـا وتجسمت نوار بها الـــنوار**
**غناء ينشر وشيه البـــــــزازلي فيها ويفتن مسكه العـطار**
**خام الغبار بها وقد نضــج الندى وجه الثرى واستيقظ النــوار**
**والماء في حاسه الحباب مقلـــــد رررت عليه وجيوبها الأشجار**

ولنتأمل هذه الأبيات الاخرى حتى ندرك مدى تفوق ابن خفاجة في هذا المجال ولنتأمل في نفس الوقت طريقته في الوصف وكيف يتأتى له أن يبعث الحياة فيما يراه فتخرج صورة حيث انتهت لطيفة تؤثر في السامع إلى حد بعيد:

**وكمامة حدر الصباح قنـــاعها عن صفحة تندى من الأزهار**
**في أبطح رضعت تعور أقاحـــة أخلان كل غمامة مضـــرار**
**نثرت بحسر الروض فيه بيد الصبا درر الندى ودراهم النـــوار.** (1)

(1)- **المرجع السابق**، ص89-90.

ولم تكن هذه المناظر على الصورة التي بدت له لو لم يكن بالجزيرة نهرها، وكم تضاعفت الأبيات التي أشار فيها إليه مبينا هكذا مدى تعلقه بها، ولا سيما هذا النهر بمياهه الصافية والجارية بهدوء والباعثة في نفس الشاعر بالاطمئنان والارتياح عند مشاهدته فيذكره بتشوق وحنان بألفاظ وعبارات المحب المفتون بجمال الحبيبة فيطيل الوقوف أمام نهره وتارة متجولاً على ضفافه تارة أخرى ضفاف مزهرة مسجده تسمح للشاعر بأن يطلق العنان لخياله وأحلامه. [1]

ولنذكر بعض الأبيات استشهادا عل ماسبق:

**لله نهر سال في بطحاء أشهى ورودا من لمى الحسناء**

**متعطف مثل الصوار كأنه والزهر يكنفه مجر سمـــــاء.**

ويقول أيضا :

**طوت السرى والبرق سوط خافق بيدو الدجى والريح اطهر أمرن**

**نشوى تهادى في وشاح مذهب قلقل وتسحب من ذيول حون.**

وأما البرق والرعد فهما في غالب الأحيان رسولان أمينان يحملان الأسرار إلى الأحباب ويعودان بالأخبار عنهم، كما يتأتى تبشير الطبيعة بسقوط المطر لأطفاء عطشها فيقول في هذا الشأن:

**رعدت فرجعت الرغاء مطـببة لم تدر غير البرق رمـــــــام**

**أوحت هناك إلى الربى أن يسرى بالري فرع أراكة ويشـــــــام**

وأما الرياح فهي في جوهرها حركته، فدورها أن تهز الأشجار المزهرة حتى تساقط الأزهار لتحلية الطبيعة كما يذكرها في صورة غزلية فيقول :

**والريح تلتطم فيه أرادف الربى لعبا ونلتم أوجه الأزهار** [2]

(1)- **المرجع السابق**.ص90.

(2)- **المرجع السابق**.ص91.

ولقد شاهد ابن خفاجة طويلا غروب الشمس متأملا بابتهاج مايطرأ على الطبيعة من تغيرات تتسبب فيها ألوان الأصيل كما يتأمل الشمس نفسها في نهاية المطاف وقبل اختفائها وراء الأفق فيعبر عما يتراءى من صور قائلا:

**وقد نظرت شمس الأصيل إلى الربى بأضعف من طرف المريض وأفـــتر**

**ولاح على بلــورة عديـــــــــره شعاع شراب العشـــية أصـــــفر**

**وصفرة مسواك الأصـــيل تروقــني على لعس من مسقط الشمس أسمر**

**إلى أن توارت بالحـــجاب مريضة تلفع في ثوب من الليل أحضـــــر**

ابن خفاجة المقتع بأن اختفاء الشمس المثيرة لا يدوم، إذ ستعود مشرقة مبشّرة بيوم جديد يستقبله شارعنا بكل مرح لما يثيره الصبح في نفسه من هدوء واطمئنان.

مما يؤدي به إلى صورة لطيفة عذبة فيقول :

**وافتر مبتسم الصباح كأنه وضح بقادمه العراب الأعصم**

وكما يقول أيضا :

**لقد ضحك الصباح بمحتلاه وراء الليل من ثغر شنيـــاب.**

ولكن بين غروب الشمس وشروقها يسود الظلام الكاحل طامسا الطبيعة بمياهها، ولقد افتتن ابن خفاجة كغيره من الشعراء بالليل كما هاله عليه ماينطوي عليه من عجائب وغرائب فينظر إلى الليل بنظرة ساخطة تارة وبنظرة راضية تارة أخرى، وبالفعل فكل مايخيف الإنسان ويرعبه يتم ليلا ولكن هذا لايهم ابن خفاجة، وما يطيل الكلام بهذا الشأن إذا مشغل باله هو مايتميز به الليل عن النهار، إذ هو أفضل الأوقات لتحقيق رغبات المحبين، فبالليل تنعقد مجالس الإنس حيث يلد السمر بين الندماء في جو كله مرح وهُم يتناولون خمرا. ويتمتعون بالإستماع إلى مايطرب النفس من شعر وموسيقى تؤديها قيان حسان وغلاميات متدللات.[1]

(1)- **المرجع السابق**.ص91-92.

وأما المناظر السماوية بنجومها التائبة تارة والأفلتة تارة أخرى، فابن خفاجة أوْلى اهتماما كبيرا إلى البدر وأمعن النظر في مشاهدته، فتأتى له في أبيات تستوقف القارئ لطرافتها، وقد ورد في مقدمتها مايلفت النظر إلى مدى أهمية هذه القطعة الشعرية.

وقد طلع عليه القمر في بعض ليالي أسفاره فجعل يطرق في معنى كسوفه وأقماره وعلى إهلاله تارة وإصراره ولزومه لمركزه مع انتقاله في مداره معتبرا بحسب قوة فهمه واستطاعته معتقدا أن ذلك معدود في عبادة الله وطاعته لقوله تعالى «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب». فقال ولقد أقام معاينة تلك النصية وإستشراق تلك الحالة مقام المناجاة لمن خلى بنفسه يفكر وينظر نظر المرفق يعبر:

**لقد أصخت إلى نجواك من قمر وبت أدلج بين الوعي والنـــــظر**
**لاأجتلي لمحا حتى أعب ملـــحا عدلا من الحكم بين السمع البصر**
**وقد ملئت سواد العين من وضح فقرط السمع قرط الأنس من سمـــر**
**فلو جمعت إلى حسن محـــاورة حزت الجمالين من جبر ومن خـــبر**

وابن خفاجة كما يبدو لنا جليا لما يتعرض لوصف البدر وإنما اقتصر على مخاطبة هذا الكوكب الصامت الأبكم متخذا إياه وسيلة للتعبير عما كان يحتاج بصدره وعمّا وصل إليه بعد التأمل العميق فأتى بالمقابلة الأليمة بين الإنسان والبدر، فحظ الأول الغناء وحظ الثاني البقاء مغتنما هذه الفرصة لينبّه الإنسان عن غفلته وعن عدم مبالاته بمرور الزمن إلى أن تفاجئه المنية على غرار السابقين فلا مجال للتحلي والصبر مما أدى الشاعر إلى البكاء على مصيره.[1]

(1)- **المرجع السابق**.ص93.

وأما القطعة الثانية وهي من طراز مماثل جديرة بالاعتناء وتستحق أن نتأمل مضمونها وقد نظمها ابن خفاجة وقت ما أطال النظر في الجبل، فبعد ما أشار بسرعة إلى ضخامته وعلوه أتى إلى شخصيته في هيئة شيخ وقور محنك توالت عليه الأيام والليالي وهو ثابت بمكانه متأملا حوادث الدنيا، وكانت رغبة ابن خفاجة أن يستفيد مما إستخلصه هذا الجبل من عبر فاستمع إليه:

**أصخت إليه وهو أخرس صامت فحدثني ليل السرى بالعجائـب**
**وقال الاكم كنت ملجأ فآتكـن وموطن أواه نبتل نائـــــــب**
**وكم مربي مـــدلج ومـــؤوب وقـال بظلي من مطي وراكـــب**
**ولاطم من نكب الرياح معاطفـي وزاحـم مـن خضر البحار جوانبي**
**كم سفرت لي من شموس وأقمار وباتت تراني من عيون كواكـــب.** [1]

(1)- **المرجع السابق**.ص94.

# المبحث الثاني:

وصف الطبيعة الأندلسية " الطبيعة الصامتة نموذجاً "

- المطلب الأول: وصف الروضيات.
- المطلب الثاني: وصف الأشجار والأزهار والثمار.
- المطلب الثالث: دراسة قصيدة "الجبل" دراسة وصفية.

**تمهيد:**

كان ابن خفاجة أكثر الشعراء هياماً وأشدهم إعجاباً بجمال بلاده ومحاسن طبيعتها، فذهب في الخيال حدّاً بعيداً يكشف عن مدى هيامه، حيث ادّعى أنها الجنة من دخلها فقد حرمت عليه النار إذ يقول مناشدا أهل الأندلس:

**يـــــا أهل أندلس لله دركم ماءٌ وظل وأنهارٌ وأشجار**

**ما جنة الخلد إلا في دياركم وهذه كنت لو خيرت أختار**

**لا تتقوا بعدها أن ذتدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار**

ويكرر هذا المعنى في قوله:

**إن للجنة بالأندلس مجلى حسن وريا نفس**

**فسنا صبحتها من شنب ودجى ليلتها من لعس** (1)

ورأى ابن خفاجة في الطبيعة لطول صحبته إيّاها وجواره لها، «خير صديق يبثه شكواه، يتحدث إليه ويتحدث عنه. رأى فيها صديقاً صامتاً وفي أحيان أخرى ناطقاً، جامداً، وفي أحيان متحركاً ميتاً، وفي أحيان حيّا صديقاً مواتيا لا يعاند، مسالماً لا يغدر، فاتّجه إليها يخاطبها ويسمع إليها، وينقل عنها». (2)

«إن الطبيعة الأندلسية شغلت الناس من الملاك والأمراء والشعراء فأقبلوا عليها وهاموا بها على نحو لم يتوافر للمشارقة ولا للطبيعة المشرقية فذكروا الأندلس ومحاسنها، ووصفوا الأنهار والأشجار والرياض والأزهار، وحدثونا عن الريحان والسوسن، والياسمين والجلنار، كما تحدثوا عن الفواكه،

(1)- سعد شلبي، **البيئة الأندلسية**، ص 103.

(2)- عبد الرحمان جبير، **ابن خفاجة الأندلسي**، ص 110.

والعنب وعصيره، ولون التفاح وشكل الرمان، وتراءت أمامهم السماء بشمسها ونجومها وزرقتها وصفائها، وساروا في بلادهم ذهابا وجيئة فذكروا جبالها وحيوانها وزروعها وأنهارها، وقوارتها ودورها وقصورها، وطيورها الجميلة وحشراتها الهائمة وزواحفها السائمة».[1]

وصف ابن خفاجة الطبيعة وأبدع في وصفها بداعة الخالق في خلقها وصورها فأحسن تصويرها، حيث وصف الرياض وأنواع الأزهار والأشجار وما يتصل بها من غدران وأنهار.

**المطلب الأول: الروضيات:**

فقد وقف حياته على وصف الحدائق، و«كان أشد ما يثيره من بينها منظر الأوراق الخضراء تتطاير في الهواء وتتناثر ظلالها على الأرض، فهو لا يقدم وصفا محدداً على حين يعتبر الزهور عنصراً مساعداً لتكملة اللوحة».[2] ونجده يقول في وصف حديقة:

**وصقلية* الأنوار تلوى عطفها ريح تلف فروعها معطارُ**

**عاطي بها الصهباء أحوى أحورٌ سحابُ أذيال السُرى سحار**

**والنور عقد والغصون سوالفٌ والجذع زند والخليج سوار**

**بحديقة مثل اللّمى ظلابها وتطلعت شنيابها الأنوار**

**رقص القضيب بها وقد شرب الثرى وشد الحمام وصفق التيار**

**غناء* الحف عطفها الورق الندى والتفّ في جنباتها النوار**

**فتطلع في كل موقع لحظة من كل غصن صفحةٌ غدار[3]**

(1)- **المرجع السابق**، ص 101.

(2)- علي الغريب، **دراسات في الشعر الأندلسي**، ص 244.

(3)- **الديوان** ابن خفاجة، ص 114. * صقلية= المصقولة ، * غناء= الكثيرة الأشجار.

نلاحظ في الأبيات السابقة بأن فن النوريات قد ازدهر بشكل واسع في بيئة الأندلس ومن أهم الفواصل التي ساعدت على انتشاره، وفرة الأزهار، الرخاء الاجتماعي، شغف الملوك بالنواوير وشروح حياة اللهو، وقد سحر الشعراء مفاتن الأنوار فتباهوا في وضع ألوانها وأشكالها ولعلهم بمباهج الزهر، ففي البيت الأول: تبدو النوار في القصيدة وكأنها امرأة فلها من صفاتها، تحتوي هذه الأخيرة بعطفها على الرجل لترويه عطفها وحنانها، وهنا تلوى النوار عطفها على الأرض لتحضنها بين أحضانها فتصبح بذلك كرجل يتنعم بعاطفة محبوبة، لقد شخص الشاعر النوار بامرأة لأنها تتميز بعطرها الأخاذ فتبدوا وكأنها سرقت عطرها من الزهرة البيضاء.

وفي البيت الثاني يحاول الشاعر دمج الطبيعة بالإنسان عامة، وبالمرأة خاصة في جو عبق بالسعادة والراحة فرآها تتعاطى الخمر بين أزهار النوار، وتبدو تلك الجارية الأخاذة ذات العينين السوداويين ترتدي ثوبا طويلاً ملامساً الأرض ثم توحدت نفس الشاعر مع نفس الطبيعة توحداً ثابتاً في البيت الثالث وجعلت من صورها أشخاصاً حية تتمتع بميزات إنسانية.[1]

وهذا الاندماج الموحد يظهر بصورة واضحة عندما يربط بين الطبيعة والمرأة، فقد جعل النوار عقداً كي تزين المرأة عنقها لإبراز جمالها، كما رأى في الغصون المتفرغة شعر المرأة المتدلي، واستخدم الجذع للزند كمصدر قوة وأمان، كما أن التفات الزهر في الحديقة يبدو وكأنه سوار، إذاً نستنتج أن السوار والزند والسوالف كلها عناصر أساسية خاصة للمرأة.

ويمثل في البيت الرابع بين المرأة والحديقة أصدق تمثيل فلو حذفنا كلمة حديقة لكان البيت يتحدث عن المرأة باللمى والأسنان البيضاء والنوار العيون، فالحديقة ليست زهوراً وأنواراً تعصف بها الرياح، وتغرف في جناتها العصافير إنما هي امرأة فمها وقدها وعطفها وزندها.

(1)- ثامر إبراهيم المصاروة. **لطبيعة في شعر ابن خفاجة**http://www.startimes.com/f.aspx?t=5049736. رابطة أدباء الشام يوم 08 ماي 2013م.

ونلاحظ أن الشاعر مزج حالته النّفسية بالمظاهر الطبيعية، أي عكس نفسه على الطبيعة كما زيّنها بالتّشخيص المميّز، ولقد تخيل الحياة في ما لا حياة فيه ومزج الجماد أو المظاهر الطبيعية صفات إنسانية من خلال التشبيه (النور عقد، السوالف للأغصان، والجذع زند، والخليج سوار) والاستعارات (رقص القضيب، شرب الندى، صفق التيار) والكناية (سحاب، أذيال، الصبي) والجناس العرفي (أحوى، أحور).

هذه القصيدة وإن كانت في ظاهرها موضوعا بسيطاً غير أنها قصيدة تتحدث عن جمال الطبيعة الأندلسية ورقتها وانعكاسها على المشاعر، وكأن الشاعر ألبسها حلته النفسية فأتت مشحّة هادفة.[1]

(1)- ثامر إبراهيم المصاروة. **الطبيعة في شعر ابن خفاجة** http://www.startimes.com/f.aspx?t=5049736

ويقول ابن خفاجة:

**يابانة* تهتــز فينانــة* وروضة تنفخ معطاراً**

**لله أعطافك من خوطة وحبذا نــورك نوار[1]**

وقد تعددت في الديوان الأبيات التي يشير فيها ابن خفاجة إلى الظل لأن البساتين تزداد بفضل قطراته رونقا وبهاء، وتعثر في الأبيات الآتي على صورة تقليدية حيث يشبه الماء بالفضة ما أن يقبها الأصيل حتى تستحيل ذهبا فيقول:

**فالروض مهتز المعاطف نغمة نشوات تعطفه الصبا فيميل**

**ريّان فضفضه الندى ثم انجلى عنه فذهب صفحتيه أصيل**

ويأتي بتشبيه آخر، وهي صورة معروفة، حيث يشبه قطرات الندى بالجمان فيقول:

**وضمخ ردع الشمس نحر حديقة عليه من الظل السقيط جُمان**

**ونمــت بأسـرار الريـاض خميلـة لها النور ثغر والنسيم لسـان**

إن القارئ لروضيات ابن خفاجة ليحس وهو يقرأ كان طبيعة شعر نُقلت إليه فهو ينظر ويسمع ويشم ويتذوق، فيشارك الشاعر استمتاعه بالحياة في جو طبيعته الفاتنة، وهذا يعني أن ابن خفاجة لم يكن إلا مصوراً بارعاً ينقلها كما هي في الواقع بأمانة دون إحساس أو تفاعل أو مشاركة، بل يفصح عن إعجاب الشاعر بالطبيعة وإحساسه العميق بها في مظاهرها المختلفة فهو الذي ناجاها واشتكى إليها وشاركته آلامه وأحزانه.[2]

(1)- ابن خفاجة. **الديوان** ، ص 100، بانة *= واحدة البان وهي شجرة لين، فينانة *= الحسنة الشعر، طويلته.

(2)- ابن خفاجة. **الديوان** ،ص 206، 263.

## المطلب الثاني: الأشجار والزهور والثمار:

وصف ابن خفاجة الشجرة في مقطوعات، وطالما يذكرها في مواضع عدة مُشبّها ومستعيراً، مثل مقطوعته في **شجرة تارغ:**

**وجُل في الحديقة أخت المنى ودُن بالمدامة أم الطرب**

**وحاملة من بنات القنا أماليد تحمل خضر العذب**

**تتوب مورقة عن غدار وتضحك زاهرة عن شنب**

**وتندى بها في مهب الصبا زبر جدة أثمرت بالذهب**[1]

«فالأشجار بأغصانها وورقها وأنوارها وثمارها فقد استوقفت شاعرنا مرات عديدة ويُلاحظ المستشرق بيرس في هذا الشأن قائلاً: إن ما يلفت نظر الشاعر هو الورق الأخضر المرتفع في الهواء، الذي يبعث الظلال على الأرض، فليست الأزهار لديه إلا من الكماليات، فهو شاعر مهتم بالمشاهد الطبيعية يرى قبل كل شيء الشجرة، دون أن يميز نوعاً من الأنواع بصفة دقيقة»، فنجد في هذا البيت تأكيداً وتأييداً لما سبق من كلام:

**ومنابر الأشجار قد قامت بها خطباء مفصحة من الأطيار**[2]

«وقد عنى الشاعر بالسرح فقد فتنته شجرة السرحة بظلها ونورها فهام بها أيضاً ورسم لها شعره صوراً مفعمة بالحركة والحياة، وهي صوراً لا يخفى ما ظهر مسرحها من أحاسيس عادية. حرص الشاعر على عدم البوح بها بطريقة مباشرة، وهي لا تروقه في أيام الحر حيث يهرع إلى ظلها فحسب بل تروقه أيضاً منظرها وقد زادها سقيط الظل بريق وجمالاً، فالشجرة ذلك الكائن الحي الذي يتشبث

(1)- **الديوان** ابن خفاجة، ص 21.

(2)- **المرجع نفسه**، ص129.

بالحياة بجذوع كأنها أصابع آدمية تفنش عن الغذاء، تلك الأم التي تجوع وتشبع وتضمأ وتروي، وتستهين بالحر والصفيق، تحتمل الجدب والجفاف ونقاوم العواصف وتتجمل زاهرة وتنكمش عارية وتجتدب الحشرات برحيق زهرها وتتملق للإنسان بحلاوة ثمرها كل ذلك لخد نوعها وتغلف بذورها هذه الشجرة ولا برها فيها ابن خفاجة غير زبدجد وذهب وزهر كالشنب ».[1]

كما يصور لنا ابن خفاجة شجرة الأداكة في قوله:

**أداكة سجع الهديل لفرعها والصبح يسفر عن جنبي نهار**

**هزت له أعصافها ولربها خلعت عليه ملاءة النوار.[2]**

« فهو يصور الشجرة وهي تستقبل الطيور المفردة على أفنانها وقد لفضت على تلك الطيور من نوارها صورة حلت من التناضد جعل لها الشاعر إطاراً جميلل من الصبح الذي سفر جبين النهار»[3].

ويقول في وصف النارنج وعليه يقف الطير الذي يصفح عن زقزقة أشبه بفصاحة الخطباء، فيهتز لذلك الغصن الي يحف للقياه مضطربا بين الضلال الخافقة وانسياب المياه الجارية في المسيل الواسع.

ورد ذكر الريحان فردد ذكر الريحان ثلاث مرات في الديوان ولا يفوت ابن خفاجة أن يجعلك في صورة شخص في كل مرة أنه يذكره لمحبوبته ففي القطعة الشعرية الآنية لا يذكر الشاعر الريحان بعينه.[4]

(1)- عبد الرحمان جبير، **ابن خفاجة الأندلسي** ص 105، 104.

(2)- **الديوان** ابن خفاجة ص116.

(3)- عبد الرحمان جبير، **ابن خفاجة الأندلسي** ص 41.

(4)- حسان حجاجي، **حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة** ص 266.

**وسرحة خاض منا ظلها نهر أوفت* عليه فلم تنقص ولم تزد**

**كما تداينت من ثغر لمرتشف ثم انثيت فلم تصدر ولم ترد**

**كأن أفنانها، طيبا حمى ملك أغصى* وأعطى فللم يوعد ولم يعد [1]**

وقد ذكر أنواع أخرى من الشجر في الديوان ولكن في سياق آخر، فنجد مثلاً ألبان كمشبه به للتعبير عن استقامة القامة، وفي موضع آخر ينادي الشاعر هذه الشجرة ليودعها عواطفه، وكذلك الأمر في شأن الدقلى.

وأما الأزهار فقد جاء ذكرها في أبيات كثيرة، وهذا مما لا سبيل إلى التعجب منه، لأن ابن خفاجة كان يُعد الأزهار من حلية الطبيعة، استطاع أن يأتي بصور متنوعة.[2]

شيقة كما شهد به هذه الأبيات:

**ألا رب يوم جثّث* الكأس خطوه فطارو أيام السرور قصار**

**عثرت بنيل السكر فيه عيشة وللريح في موج الخليج عيارُ**

**وقد فضفض النوار كل ربّاوة* وسال عليها للأصيل نضار [3]**

(1)- **الديوان** ابن خفاجة ص 82، أوفت* = أسرفت، أغصى*= سكتت

(2)- حمدان حجابي، **حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة**، ص 265.

(3)- **الديوان** ابن خفاجة، ص 113، حثث* = فضت ونشطت ، رباوة* = الربوة = المرتفع.

فالزهرة تعرض على الشاعر اليانعة في الصباح بعدما تضعها الندى، فهل من الغريب إذا أن ينسب إليها ابن خفاجة أوصاف الفتاة الجميلة، وهو القائل:

**حث المدامة فالنسيم عليل والظل خفاق الرواق ضليل**

**والنوار طرف قد تنبه دامع والماء مبتسم يروق صقيل**

ولتتذوق في الأبيات رقة الصور المتعددة وطرافتها حيث يشير إلى النوار فيقول:

**وكمامة* حرر* الصباح قناعها عن صفحة تندى من الأزهار**

**في أبطح رضعت ثغور أقاحة أخلاف* كل غمامة مدرار**

**نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا درر الندى ودراهم النور** (1)

وقد استعمل الشاعر أزهار مختلفة كمشبه به ليتغنى بجمال محبوبته أكثر من مرة مثل الريحان والورد والشقيق والأقحوان والنرجس والأس والبنفسج والسوس والنيلوفر.

نلاحظ في هذين البيتين، أن شغف ابن خفاجة يذكر الجنان والرياض جعله يحمل لقب الجنان، فإذا وصف المرأة نابت نضارة الطبيعة عنها رامز إليها، فشبه أعطاف المرأة بالغصن وسرق نورها من النوار، وعطرها من الأزهار.(2)

من أحب ألوان الجمال إلى ابن خفاجة ما نقشته يد الإنسان، فالروضيات حدائق بديعة واسعة الأرجاء، تتوزعها الزهور، تتناثر فيها الأشجار، وتتقاسمها الألوان الزاهية، وتعد من أغلب الموضوعات في تصوير الطبيعة الصامتة، فالشاعر قد جال وصال فيها، «وتأكداً على ذلك صورة

(1)- **الديوان** ابن خفاجة، ص 116، كمامة* = غلاف الزهر، حرر*= أنز، أخلاف* = أثداء.

(2)- حمدان حجاجي، **حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة**.

الروض التي تتشكل من الغمام وفناء الطير واهتزاز الأغصان وتفتح الأزهار واستيقاظ النوار، في مثل قوله».[1]

**أذن الغمام بديمة وعقار فامزُج لُجينا منهما بنُضار**

**وأربع على حكم الربيع بأجرع هزج الندامى فصيح الأطيار**

**متقسم الألحاظ بين محاسن من ردف رابية وخصر قرار**

**نثرت بحجر الروض فيه يدُ الصبا درر الندى ودراهم الأنوار**

**وهفت بغريد هنالك أيكة خفاقة بمهب ريح عرار**

**هزّت له أعطافها ولربما خلعت عليه مُلاءة النوار**

وقد استعمل الشاعر أزهار مختلفة كمشبه به ليتغنى بجمال محبوبته أكثر من مرة مثل الريحان والورد والشقيق والأقحوان والعرار والنرجس والآس والبنفسج والسوسن والنيلوفر.

فوَرد ذكر الريحان ثلاث مرات في الديوان ولا يفوت ابن خفاجة أن يجعله في صورة شخص في كل مرة، ألم يذكره لمحبوبته ففي القطعة الشعرية الآتية لا يذكر الشاعر الريحان بعينه [2]، ويتجلى لنا ابن خفاجة فيها ذلك الشاعر الفنان الماهر، فيقول:

**ومعشوقة الحسن ممشوقة يهيم بها الطرف والمعطس**

**لها نظرة سيمتها* نظرة وتكلف بالأنفس الأنفس**

**فمن ماء جفني لها مكرع يسيح ومن راحتي مغرس [3]**

(1)- د.علي الغريب، **دراسات في الشعر الأندلسي**، مكتبة الآداب، ط1، 2003م، ص 241.

(2)- حمدان حجاجي: **حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة** ، ص266.

(3)- **الديوان** ابن خفاجة ، ص149، * سمتها= أوليتها.

ويطيب لابن خفاجة أن يحلي المناظر المنبسطة أمامه بمختلف الأزهار من بنفسج وأقحوان ومن ياسمين وسوسن، ومن ورد إلى آس ونيلوفر فهي بمثابة مختلف الألوان لدى الرسام، ألوان يستخدمها بمهارة فتأتي في أماكنها متكاملة منسجمة زاهية تقع من نفس الشاعر موقع الرضى فيجلي لنا مشهداً رائعاً منشرحاً وفضلاً عن الألوان فالأزهار تغمر الرياض بروائحها الطبيعية ولا سيما بعدما أن يساقط عليها الندى صباحاً أو مساءً فينعشها ويصقل أوراقها مما يزيدها بهاء وقد تأتي لابن خفاجة أن يشير إلى هذا كله في أبيات طرافتها أكيدة[1]

وأما الورد فهو من الأزهار التي ورد ذكرها أربع مرات في الديوان ففي القطعة الأولى ذكر ابن خفاجة الورد حين تعرض إلى وصف مجلس أنس وهو ببلنسية مع إخوان صدق وبين أيديهم ورد قد فرش ونوار نارنج عليه قد نثر[2] فقال معدداً الصور:

**والنـور مبتسـم وخـدّ الـورد محطـوط النـقـاب***

**يندى بأخلاق الصحا ب هناك لابنـدى السـحـاب**

**وكـلاهمـا نـثـر كـمـا نـثـروا القـوافي في الخطاب**

**فكـأن كـأس سـلافة ضحكت إليهم عن حباب[3]**

وتمتاز القطعة الثانية بطرافتها حيث يتخلى الشاعر تماماً عن وصف الوردة لكي يتغنى بما تمتع به من نضارة فيقول في شأنها وقد تفتحت في غير زمانها:

**وغـريبـة هشت إلي غـزيـرة فودْت لو نسج الضياء ظلاما**

**طلعت علي مع الشيب تشوقني شيخاً كما كانت تسوق غلاما**

**مقـبـولـة أقبـلتـهـا عـن لـوعـة نظراً يكون إذا اعتبرت كلاما**

(1)- حمدان حجاجي، **محاضرات في الشعر الأ،دبي في عصر الطوائف** ص89.

(2)- حمدان حجاجي، **محاضرات في الشعر الأ،دبي في عصر الطوائف** ، ص267، 268.

(3)- **الديوان** ابن خفاجة، مرجع سابق، ص25.

**عذرت وقد أجللتها عن نسوة كبراً وأوسعت الزمان ملاما**

**عبقت وقد حنّ الربيع على النوى كرماً فأهداها إلي سلاما [1]**

وهذه القطعة الشعرية لها أهمية كبرى من ناحية مضمونها لأننا لا نجد فيها أي ذكر لكلمة وردة، وإنما اختفت وراءها ما أحس به هذا الشاعر وقد بلغته الشيخوخة، منغبطة وسرور لرؤية هذه الوردة فاعترف لها بالفضل الجزيل.

« وأما النيلوفر فلم يذكره ابن خفاجة إلا مرة واحدة في ديوانه ومما لا شك فيه أن شاعرنا قد شاهد هذا النبات المائي بأزهاره العائمة المتفتحة على سطح الماء في النهار فإذا جاء الليل تكتمت وبدل أن يصف لنا الشاعر هذه الأعجوبة بدا له أن يؤولها» فقال في بيتين:

**ونيلوفر لم يدر ما مسّ حرقة بحب ولا لوعة وغرام**

**يهب مع الإصباح من سية الكرى ويطبق ليأً جفنه فينهام[2]**

(1)- **المرجع السابق**، ص229.

(2)- حمدان حجاجي، **مرجع سابق**، ص269.

**المطلب الثالث: دراسة قصيدة "الجبل" دراسة وصفية:**

**تمهيد:**

يلاحظ بشيء من الدهشة أن "الجبال" رغم كثرتها في الأندلس لم تكن لتؤثر في الشعراء أو توحي إليهم بالشيء الكثير لذلك لا ترى لها أثرا كبيرا في قصائدهم، وإذا ما ذكرت فبشيء ثم الحذر والخوف والرعب، لا تحببا إليها أو تغزلاً فيها، ولعل المناظر الخلابة للبساتين المنتشرة شغلت الشعراء عن التغزل بالجبال، وقد يحق لشاعر كابن خفاجة أن يرهب منظر الجبل وقد انتصب كالجبار في وجه المسافر يناطح بقممه أعالي الفضاء .

ويتعمق الشاعر في إنطاق الجبل فيحمله على التفلسف في الحياة والكائنات إذ يقول: إذا ما رأيت المآقي مني قد جفت فلا تقل إنني سلوت، ولكنني نزفت دموعي على فراق أحبتي.[1]

اشتهرت في كتب المختارات الأدبية وفي كتب تاريخ الأدب، قصيدة لابن خفاجة، بائية، أسهب الدارسون في تقويم واجتلاء جوانبها المختلفة، وكثيرا ماترد في النقول تحت عنوان "وصف الجبل". أما الشاعر فقد قدم لها بقوله: "وقال في الاعتبار" وهي قصيدة رائعة، بالغة الدلالة على حال الشاعر ونفسه في تلك الحقبة من حياته، وجعل الجبل معادلا موضوعيا لنفسه وعمره الطويل وما مرّ عليه من حوادث الخير والشر والسراء والضراء.[2]

وكأن بابن خفاجة قد وجد في هذا الجبل الصامد خير واعظ ومسل وصديق إذ يقول في: "وصف الجبل لابن خفاجة ، فكأنما يريد القول إن سؤاله المركزي في القصيدة يدور حول موضوع الحياة والموت، يقسم بالعيش فهو يدرك أن المرء يقسم عادة بأعز مالديه، فعندما بدأ المطلع وبالتالي القصيدة بكلمة "بعيشك".[3]

(1)- **الطبيعة في الشعر الأندلسي**، جميلة شحادة الخوري، بيروت، الجامعة الأمريكية، 1946، ص87-88 .1).

(2)- د.محمد رضوان الداية، **في الأدب الأندلسي**، دار الفكر دمشق، سورية، ط1، 2000م، ص 336-337.

(3)- **قراءات في الشعر الأندلسي**، أ.د صلاح جرار، كلية الأدب الجامعة الأردنية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، 2009، ص100.

**القصيدة:**

بعيشك هل تدري أهوج الجنائب تخبّ برحلي أم ظهور النّجائب
فما لحت في أولى المشارق كوكبا فأشرقت حتى جئت أخرى المغارب
وحيداً تهاداني الفيافي فأجتلي وجوه المنايا في قناع الغياهب
ولا جار إلاّ من حسام مصمّم ولا دار إلاّ في قتود الركائب
ولا أنس إلاّ أن أضاحك ساعة ثغور الأماني في وجوه المطالب
وليل إذا ما قلت قد باد فانقضى تكشّف عن وعد من الظن كاذب[1]
سحبت الدّياجي فيه سود ذوائب لأعتنق الآمال بيض ترائب
فمزّقت جيب اللّيل عن شخص أطلس تطلّع وضّاح المضاحك قاطب
رأيت به قطعا من الفجر أغبشا تأمّل عن نجم توقّد ثاقب
وأرعن طمّاح الذّؤابة باذخ يطاول أعنان السّماء بغارب
يسدّ مهبّ الرّيح عن كلّ وجهة ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنّه طوال الليالي مطرق في العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصخت إليه وهو أخرس صامت فحدثني ليل السرى بالعجائب
وقال: ألا كم كنت ملجأ قاتل ومـوطن أوّاه تبتّل تائب
وكم مرّ بي من مدلج ومؤوّب وقال بظلّي من مطيّ وراكب[2]
ولاطم من نكب الرّياح معاطفي وزاحم من خضر البحار غواربي
فما كان إلاّ أن طوتهم يد الردى وطارت بهم ريح النوى والنوائب
فما خفق أبكي غير رجفة أضلع ولا نوح ورقي غير صرخة نادب
وما غيض السّلوان دمعي وإنّما نزفت دموعي في فراق الصّواحب
وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا أودع منه راحلا غير آيب؟

(1)- عبد الله سنده، **الديوان** ابن خفاجة، دار المعرفة، ط1، بيروت- لبنان، 2006م، ص47
(2)- **المرجع نفسه**، ص48

**فحتى متى أبقى ويظعن صاحب فمن طالع أخرى الليالي وغارب؟**
**فرحماك يامولاي دعوة ضارع يمد إلى نعماك راحة راغب**
**فأسمعني من وعظه كلّ عبرة يترجمها عنه لسان التجارب**
**فسلّى بما أبكى وسّرى بما شجا وكان على عهد السّرى خير صاحب**
**وقلت وقد نكبت عنه لطيّة: سلام فإنّا من مقيم وذاهب([1])**

**مناسبة القصيدة:**

المناسبة التي قبلت فيها القصيدة، فلم تذكره المصادر التي بين أيدينا، ولكن أغلب الظن أنه قالها في كبره، وفي فكرة زمنية من حياته اتسمت بالمعاناة من السفر والتنقل والاغتراب، ويبدو أن تلك الفترة كانت أيام سفره إلى المغرب، ولقد مرّ في تلك السفرة جبل أشم من تلك الجبال التي تتجاور البحر في العدوتين المغربية والأندلسية، وكان الشاعر قد عمر طويلاً حتى بلغ سن الحكمة وتعرض خلال هذا العمر الطويل إلى مرارة الدهر ونكاباته، فنظر إلى أصحابه وهم يذهبون واحدا بعد الآخر وهم لا يعودون فظلّ وحيدا، يرقب رحلته الأخيرة فرثى نفسه بهذه القصيدة التي نحن بصدد دراستها.[(2)]

(1)- **المرجع السابق**، ص49

(2)- ابن بسام، **في محاسن أهل الجزيرة**، دار الثقافة، ط1-ج3- 1979م، ص585

**دراسة القصيدة دراسة وصفية:**

تتألف قصيدة الجبل لابن خفاجة من ستٍّ وعشرين بيتا، حين جعل مطلع القصيدة على صورة تساؤل:

**بعيشك هل تدري أهوج الجنائب تخب برحلي أم ظهور النجائب؟!**

وابن خفاجة في هذا المطلع لا يشير إلى السؤال بصورة صريحة بل بصورة مواربة فكأنما يريد القول أن سؤاله المركزي في القصيدة يدور حول موضوع الحياة والموت. وعندما يتساءل إذا كانت الرياح الجنوبية الهوجاء أو ظهور الإبل النجيبة الأصيلة هي التي تسير رحله، فإذا كانت الإبل النجيبة العتيقة هي التي تحدد وجهة سيرها، فإن ذلك يعني أن للشاعر قراره وخياره في وجهة سير الرحلة لأن الإبل النجيبة لاتعصي أمر راكبها، أو بمعنى آخر فإنه يتساءل إن كانت رحلة حياة المرء تجري وفق هواه وإرادته أم أنه مسير فيها، وهو بذلك يطرح على نفسه سؤال الجبر والاختيار وهل الإنسان مسير أم مخير في هذه الحياة، مما يؤكد أنه يقصد سؤال الحياة أنه بدأ بالقسم بالعيش.

ولئن كانت الأجواء التي افتعلها الشاعر في هذا المطلع هي أجواء القصيدة الجاهلية (هوج الجنائب، طهور النجائب، الرحل، الخبب. وهونوع من مشي الإبل ) فإنه عمد إلى كسر الوهم لدى القارئ بجاهلية النص باستخدامه للصنعة البديعية في كلمتي الجنائب والنجائب.

ويبدأ ابن خفاجة في وصف رحلته ببيت يوهم فيه القارئ أنه يتحدث عن رحلة بدأها من المشرق وجاب بها أقاصي المغرب، وهو قوله:

**فما لحت في أولى المشارق كوكبا فأشرقت حتى جبت أخرى المغارب**

فقوله:(**فما لحت في أولى المشارق**) يوحي منطقيا بأن هناك(**أخرى المشارق**).[1]

ومن المصائب التي أشار إليها إلا مصاعب الحياة نفسها ففي قوله:

**وحيدا تهاداني الفيافي فأجلتي وجوه المنايا في قناع الغياهب**

كثّف ابن خفاجة معظم مصاعب الرحلة ومخاطرها فالبقاع المقفرة تتهاداها وتسلمه كل واحدة منها إلى الأخرى فيخيل له في كل مرة ضروب من الموت مخبأة له في علم الغيب وفي هذا البيت ما ينطبق تماماً على رحلة الحياة، فهو يرمز بوجوه المنايا إلى أسباب الموت التي قد تصيب المرء في أي مرحلة من هذه المراحل وأن ذلك كله مخبوء في علم الغيب ويستشفَ من هذا البيت شدة الخوف الذي كان يعاني منه ابن خفاجة من الموت.

ومن مصاعب الرحلة التي قام بها ابن خفاجة عدم وجود الرفيق وعدم توافر المأوى وعدم وجود الأنيس:

**ولاجار إلا من حسام مصمم ولادار إلا في قتود الركائب**

**ولا أنس إلا ان أضاحك ساعة ثغور الأماني في وجوه المطالب**

كما هو في جميع أبيات وصفه للرحلة إذ كثيراً ما كان يشكو الشاعر من وحدته في السفر وأنه ليس له رفيق إلاسيفه وأنه لطول أسفاره كأنه مقيم على ظهر دابته وأنه لا يؤنسه في رحلته ولا يخفف من قسوتها ومخاطرها إلا الأمل بتحقيق الغايات منها لدى الممدوح لكن ابن خفاجة لم يقصد هذا المعنى الظاهر بل قصد المعاني المتصلة برحلته عبر الحياة فقوله (ولا جار) (ولا أنس) وقبل ذلك (وحيداً) هو وصف حقيقي لحالته الاجتماعية حيث أنه لم يتزوج ولم ينجب وأما سلاحه (الحسام المصمم) فهو لسانه وقلمه وشعره وإبداعه وأما قوله (ولادار إلا في قتود الركائب) فهو تعبير رمزي عن رحلة دائمة فكأنه مقيم في قتود الركائب أي على ظهر الراحلة، وبطبيعة الحال لا يمكن أن يشكو

(1)- الدكتور صلاح جرار، **قراءات في الشعر الأندلسي**، كلية الآداب، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، 2009م، ص101،102.

ابن خفاجة العوز والافتقار إلى مأوى، فقد كان ميسور الحال غنيا حتى أنه لم يكن محتاجا إلى التكسب ومدح الأمراء أبداً إلا أنه أحبهم كالمرابطين.[1]

وفي البيت الثاني فإنه يقصد بذلك أن لا شيء يؤنسه في هذه الرحلة السريعة سوى الأمل بتحقيق مطالبه، وما مطالبه في هذه الحال سوى رضا الله تعالى وقبوله التوبة والمغفرة ونيل الجنة.

ثم ينصب الشاعر إلى ما سيلقيه الجبل عليه، أو الشيخ الوقور المعمم، فينطلق لسانه ، وهو الأخرس الصامت، ليحدثه في ليل السرى، أي خلال مروره به ليلا عجيبا بأحاديث عجيبة وحكم مدهشة.

وإذا حديث قصة إنسان سئم الحياة ومل البقاء وذلك الخلود الذي لا غاية وراءه فقال: إن حوادث الدهر قد عبثت به فجمع بين المناقضات في رحابه، فكان مأوى للقتلة الفارين من وجه العدالة، ومن ملجأ للعابدين الزاهدين في الدنيا والناس.

وقد مر به كثير من السائرين ليلا ونهارا ، فكان لهم مفيدا يستظلون بظله، ويستريحون هم ومطاياهم في رحابه قائلاً:[2]

**بليل إذا ما قُلت قد باد فانقضى تكشّف عن وعد من الظن كاذب**

**سحبت الدياجي فيه سود ذوائب لأعتنق الآمال بيض ترائب**

**فمزقت جيب الليل عن شخص أطلس تطلع وضاح المضاحك قاطب**

**رأيت به قطعاً من الفجر أغبشا تأمل عن نجم توقد ثاقب [3]**

(1)- **المرجع السابق**، ص102- 103.

(2)- سعيد بوفلاقة : **في سمياء الشعر العربي القديم** ، التحليل النصي لجزء من بائية ابن خفاجة ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة منتوري قسنطينة عدد 23، جوان 2005 ، ص 104.

(3)- عبد الله سنده، **الديوان** ابن خفاجة، مرجع سابق، ص48.

وقد يحق لشاعر كابن خفاجة أن يرهبه منظر الجبل وقد انتصب كالجبار في وجه المسافر يناطح بقممه أعالي الفضاء ويقف بوجه الأعاصير من كل جانب ويزحم ظلام الليل بمنكبيه مرتفعا في وسط سهل مقفر كأنه صقر، ويقف في ظلام الليالي الطوال يتساءل عن معاني الأشياء تاركا للغيوم و البرق أن تحيك حوله عمائم سوداء بذوائب حمراء:

**وأرعن طماح الذؤابة بـاذخ يطاول أعنان السماء بغارب**

**يسد مهب الريح من كل وجهة ويزحم ليلا شهبه بالمناكب**

**وقور على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالي مفكر في العواقب**

**يلوث عليه الغيم سود عمائم لها من وميض البرق حمر ذوائب**

ويتخيل الشاعر أن الجبل يحدثه عن أشياء عجيبة رغم صمته وسكونه فيصغي إليه في هدأة الليل وهو يقول ألا كم كنت ملجأ المجرم ووطن الهارب المتبتل من العالم نحو ربه.وكم من مرة مر المسافرون أمامي إلى الليل أم إلى النهار هم سائرون.

كل هؤلاء شاهدتهم وحاولت أن أردهم مع العواصف.ولكن كل هذه الكائنات طوتها يد الموت وعبثت بها رياح الفرقة والشقاء:

**وكم مر بي من مدلج وموؤب وقال بظلي مـن مطـي وراكـب**

**ولاطم من نكب الرياح معاطفي وزاحم من خضر البـحار غواربي**

**فما كان إلا أن طوتهم يد الردى وطارت بهم ريح النوى والنوائب**[1]

(1)- جميلة شحادة الخوري، **الطبيعة في الشعر الأندلسي**، بيروت ,الجامعة الأمريكية 1946,ص87.

ثم يأخذ ابن خفاجة في كشف القناع عن الجبل لتجد تحت القناع ابن خفاجة نفسه، حين يقول على لسان الجبل:

**فما خفق أبكي غير رجفة أضلع ولا نوح ورقي غير صرخة نادب**

**وما غيض السلوان دمعي وإنما نزفت دموعي في فراق الصّواحب**

**فحتى متى أبقى ويظعن صاحب أودع منه راحلا غير آيب**

**وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا فمن طالع أخرى الليالي وغارب**

**فرحماك يا مولاي دعوة ضارع يمد إلى نعماك راحة راغب**

إن هذه الأبيات تنطق عن ابن خفاجة وتصف حاله أكثر مما تنطق عن الجبل، على عكس الأبيات الأربعة التي سبقتها، فابن خفاجة عندما قال هذه القصيدة كان قد تقدم في السن وقد فقد الكثير من أصحابه وأقرانه وبدأ يشعر بالغربة والوحدة والخوف من الموت، وبكى كثيرا على أصحابه الذين فقدهم، وظل يرعى الكواكب.

أي الأجيال الجديدة، ويودع أجيالا داهية، وبسبب ذلك فإنه يضرع إلى الله أن يمن عليه بالخلاص من هذه الحال.

ثم يعقب ابن خفاجة على ما سمع من الجبل قائلا:

**فأسمعني من وعظه كل عبرة يترجمها عنه لسان التجارب**

**فسلّى بما أبكى وسرّى بما شجا وكان على عهد السّرى خير صاحب**

وكان ابن خفاجة يكاد يعترف في هذين البيتين بأنه أنما اتخد من الجبل وسيلة للتفكير في تجارب الحياة ووسيلة للتسلية والتسرية في أثناء رحلته في هذه الحياة.[1]

(1)- د.صلاح جرار، **قراءات في الشعر الأندلسي**، ص107.

وفي البيت الأخير ينزع ابن خفاجة القناع تماما وينفصل عن الجبل كما انفصلت كل المخلوقات التي مرت به سابقا وطوتها يد الردى، وكأن ابن خفاجة ينعي نفسه في هذا البيت:

**وقلت وقد نكبت عنه لطيّة: سلام فإنا من مقيم وذاهب**

فالمقيم هو الجبل والذاهب هو ابن خفاجة.

لقد كانت القضية المركزية في قصيدة ابن خفاجة هي قضية الحياة والموت فكانت الكلمة الأولى في القصيدة (بعيشك)، وكانت الكلمة الأخيرة (وذاهب) ولو جمعناهما لوصلنا إلى عبارة العيش ذاهب وهي خلاصة ما كان يؤرق الشاعر وهو ينظم هده القصيدة.[1]

(1)- **المرجع السابق**، ص107

## الخـــــــاتمة:

وختاماً يمكن أن نشير في إنجاز هذا البحث إلى أهم المحطات التي استوقفتنا وأهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال بحثنا ولقد استلمنا الدراسة إلى ما يلي:

1) أن الصورة الشعرية في الشعر الأ،دلسي صورة مادتها مأخوذة من الطبيعة وأضفى عليها ابن خفاجة انفعاله.
2) أهم ميزات الشاعر التصنع والتكلف والغرابة في استخدام أسلوبه وكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد.
3) نلاحظ اختلاف موضوعاته الشعرية من وصف ومدح ورثاء ويلجأ دائماً في شعره إلى الطبيعة.
4) إن ابن خفاجة أشد الشعراء إعجاباً بجمال بلاده، ومحاسن طبيعتها، وكان كثير الوصف لها، حتى لُقب "بـــــــالجنان".
5) وصف وحكمة في قصيدة "الجبل" والتشخيص بصفات الإنسان للظواهر الطبيعية.

وفي الأخير، نرجوا أن نكون قد وفقنا في هذا البحث ولو بالقدر البسيط في إزالة خفايا الشعر عند شاعرنا، وإننا نعترف كل الإعتراف أن الشاعر كان لنا حقّا أن نعود إليه لننهل من مفرداته، ومرجعاً فنياً نستقي منه، وهذا يظهر في ديوانه.

**قائمة المصادر والمراجع:**


1) ابن بسام: **في محاسن أهل الجزيرة**، دار الثقافة، ط1-ج3- 1979م.

2) ابن خفاجة الأندلسي:**عبد الرحمان جبير**.منشورات دار أفاق الجديدة.بيروت.د/ط.

3) جابر عصفور:**الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**.دار التنوير والنشر.1984م.ط2.

4) جميلة شحادة الخوري: **الطبيعة في الشعر الأندلسي**، بيروت ,الجامعة الأمريكية 1946م.

5) جميلة شحادة الخوري: **الطبيعة في الشعر الأندلسي**، بيروت، الجامعة الأمريكية، 1946م.

6) حمدان حجاجي:**حياة وأثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر.

7) حمدان حجاجي:**محاضرات في الشعر الأندلسي**.طبع دفاتر أندلسية في عصر ملوك الطوائف.2001م.

8) حنا الفاخوري: **تاريخ الأدب العربي**، المكتبة البوليسية، بيروت، لبنان.1970م.ط1.

9) د.علي الغريب، **دراسات في الشعر الأندلسي**، مكتبة الآداب، ط1، 2003م.

10) د.ف.حسن محمد نور الدين: **ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس**.دار الكتابة العلمية.بيروت.لبنان.ط1.1990م.

11) د.محمد رضوان الداية: **في الأدب الأندلسي**، دار الفكر دمشق، سورية، ط1، 2000م.

12) الدكتور صلاح جرار: **قراءات في الشعر الأندلسي**، كلية الآداب، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، 2009م.

13) سعيد بوفلاقة: **في سمياء الشعر العربي القديم** ، التحليل النصي لجزء من بائية ابن خفاجة ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة منتوري قسنطينة عدد 23، جوان 2005م.

14) عبد الحكيم الوائلي: **موسوعة شعراء الأندلس**، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2001م.ط1.

15) عبد القادر أحمد الرباعي: **الصورة الفنية عند أبي تمام**.كلية الأدب.جامعة القاهرة.1976م.

16) عبد الله سنده: **الديوان** ابن خفاجة، دار المعرفة، ط1، بيروت- لبنان، 2006م.

17) علي غريب محمد الشاوي: **الصورة الشعرية عند الأعمى التظليلي مشتبه**.الأدب.د ت.ط1

18) محمد رضوان الداية: **الذخائر، المكتب الإسلامي**.1972م، ط1.

19) مصطفى ناصف: **الصورة الأدبية**، طبعة مكتبة مصر القاهرة.1958م.ط1.

**المواقع الالكترونية:**

ثامر إبراهيم المصاروة. **لطبيعة في شعر ابن خفاجة**
.http://www.startimes.com/f.aspx?t=5049736
,رابطة أدباء الشام,يوم 08 ماي 2013.

## فهـرس المحتـويـات


| الموضـــــــــوع | الصفحة |
|---|---|
| مقدمة | أ – ب |
| مدخل حول: الصورة الشعرية | 3 |
| المبحث الأول: شعر ابن خفاجة | |
| المطلب الأول: ترجمة الشاعر | 5 |
| المطلب الثاني: آثاره | 10 |
| المطلب الثالث: خصائص شعر ابن خفاجة (الأغراض الشعرية عند ابن خفاجة) | 12 |
| 1- الأغراض المدحية | 12 |
| 2- الرثاء | 13 |
| 3- الأغراض الزهدية | 20-14 |
| المبحث الثاني: وصف الطبيعة الأندلسية " الطبيعة الصامتة نموذجاً " | |
| تمهيد | 22 |
| المطلب الأول: الروضيات | 26-23 |
| المطلب الثاني: الأشجار والزهور والثمار | 33-27 |
| المطلب الثالث: دراسة قصيدة " الجبل" دراسة وصفية | 34 |
| تمهيد | 34 |
| القصيدة | 36-35 |
| مناسبة القصيدة | 36 |
| دراسة القصيدة دراسة وصفية | 42-37 |
| الخاتمة | 43 |
| قائمة المصادر والمراجع | 45-44 |
| فهرس المحتويات | 46 |